

# السقوط في الظلمة

قصّة بقلم عبد الصمد حسن

- لكنك لا زلت شابا كما كنت دائما . انك حاربت كاسد .  
- مثلك تماما .  
عبرت فترة صمت . سمعوا حسين بعدها :  
- لكن من يستطيع ان يخبرنا أين اتجهت وحدتنا . من يستطيع ان يخبرنا كيف حارب جنودنا وهل حاربوا حقا ؟  
رد سعيد بأعتداد وثقة :  
- أنت تعرف يا حسين . ان العدو يخشى بأسنا .  
- لكننا انفصلنا عن وحدتنا .  
- الفارة الاسرائيلية المفاجئة على وحدتنا ارغمتنا على الانفصال .  
احتمينا بالجدار وبالهضبة . بعد ان حملناك وانت تنزف وبعد ان مات محمود وعيناه تتجهان نحو الإعداء .  
عقب حسين بصوت بارد كالطيف :  
- لا زلت أذكرها . كانت ليلة بلا قمر ولا نجوم .  
سمعوا أحد الجنود :  
- وحدتنا انسحبت اثر الموقعة . لم نمكث اكثر من ثلاثة ايام .  
عدنا بعدها للاتحاق لنجدها قد غادرت موقعها .  
قال سعيد على الفور :  
- لعلها تلتقأ أمرا بالانسحاب . انها الآن فوق الجبهة . هذا ضمن المخطط الذي نمتلكه .  
سمع حسين بصوت خفيض :  
- أنقع هنا كالحجارة ؟  
- نلتحق بوحدتنا .  
- متسى ؟  
- غدا . ينبغي ان نذهب الى حيث يحتاجون اليها .  
همس حسين بصوت فاجع الرؤى :  
- اتركوني حيث أنا . قد أعيق سيركم واسبب لكم الخسران .  
- نأخذك على كل حال . أنت وبقائتكم .  
في ليلة افترشتها الظلمة وغمرها الفو المريح . كانت أعين الجنود تجادل الرقاد فوق الجفون الجريحة في حالة استيقاظ واهن . وعلقت نظرات حسين بشعلة الفانوس . خيل اليه ان البعد بين عينيه والشعلة المتوهجة قد تلاشى وان الذبالة القطنية المتسخة بالزيت المحترق ستنقسم في احدى حركاتها المتهمة .  
وفي الصباح تحرك الجنود فأخرجوا نقالة حسين الى النور . ثم انشغلوا بعدها برفع اوتاد الخيمة المفروسة في التربة . بعد ان فرغوا اكنهل بزوغ الشمس وبدت مثالفة فسي سماء نقيه . قال سعيد لجنديين :  
- عليكما بالنقالة .  
وساروا في جادة ضيقة متعرجة غطتها صنوف الادغال البرية وزحفت فوق جوانبها الاعشاب المتسلقة ، وحين عبورهم الجادة التسي قبعت فوقها آثار الحياة ، سلكت اقدامهم جادة أخرى كالحية خالية من الحياة . كانت هناك بعض الاسلاك تمتد يمينا ويسارا ، مثبتة الاوتاد .  
سمعوا سعيد :  
- لو واصلنا هكذا ، قد نصل قبل الغروب .

هبط عليهم الليل كما لو الفى احد على البقعة بعباءة سوداء هائلة . شعر ببرودة مفاجئة وارتجف جسده . امتدت يده داخل جيب سرواله . اخرج ولاعة ، وطفقت اصابعه تحركها حركات سريعة متلاحقة . انبثقت عن فوهتها نصف الدائرية شعلة متوهجة بحجم حبة الذرة . احاطت بها يدان كبيرتان صنعت ستارا حول الشعلة المتخاذلة . شرعت نظرائه تنفرس الوجوه الصامتة التي اتجهت لهذه الشعلة المرجفة . وهمس :  
- يمكن لهذه الشعلة الصغيرة ان تخبو في اية لحظة .  
رد آخر :  
- اننا تركنا الفانوس في الخيمة . وحسين مسجى هناك وحده . كانوا في مجموعهم خمسة من الجنود ، تحركسوا يظلمهم الصمت المطبق مثلما تظلل مراوح سقف النخيل منطقة نور حاد .  
واجتازوا جادة متعرجة مفروشة بالظلمة الكثيفة نحو اخرى ضيقة متفرعة ثلاثة فروع ، وعبر الظلام والصمت سمعوا احدثهم :  
- اقدامنا تتعثر بالحفر والحجارة الصلبة . عسى شعلة الولاة تبرد الظلمة بعض الشيء يا سعيد .  
قال سعيد وهو يسحب خطواته في المقدمة :  
- لسنا بقرباء على هذه الارض . لنسلك الفسرع الوسط من الطريق .  
انقضت نصف ساعة ، وصلوا بعدها الى سور طيني واطيء .  
وانبرى احدثهم يقول :  
- وصلنا السور الطيني الواطيء .  
وسمعوا سعيد :  
- عليكم بتسلق السور أيها الابطال . لنقطع الطريق من هنا .  
بدأ سعيد وتبعه الآخرون . فاصبحوا بعد لحظات وراء الجدار من الجهة الثانية .  
وتابعوا مسيرتهم في الظلام والسكون الساخن المتدفق الذي حل بينهم من جديد . وسمعوا صوت احدثهم :  
- اننا نصل الخيمة .

\*\*\*

وكتقاطر من يحملون جنازة ، تقاطروا داخل الخيمة ، واطهرت شعلة الفانوس الواهية معالم الجسد المسجى بوضوح . كان جنديا وحيدا في سترة رسمية بنية اللون ، رقد فوق نقالة مكونة من قطعة خيش طويلة مستطيلة الشكل امتد فوق طرفيها بالتصاق ضلعان سميكان من الخشب . أسندت قاعدة لمعد من الحجارة الصلبة وتركت القاعدة الثانية سائبة لترقد فوق الارض . رقد رأس الجندي فوق كومة من القش واوراق الشجر اليابسة رتب بوضع يلائمه كوسادة فوق القاعدة الاولى للنقالة المستندة للمعد الحجري . وفتح الجندي عينيه .  
تمتم بصوت خفيض :  
- راقبتم البقعة بدقة ؟  
- نعم . راقبناها . انها آمنة . كيف حالك يا حسين ؟  
- لا أستطيع الوقوف بعد . تغير جسدي من نرف الدم . أصبحت كشجرة ذابلة كما ترى .  
رد سعيد وقد قصد ان يدخل الاطمئنان لصدده :

# إبرق يلمع مرة أخرى

## على طور سيناء

للشاعر الباكستاني فيض أحمد فيض

« الشاعر الباكستاني فيض أحمد فيض أكبر شعراء باكستان الاحياء ، له تاريخ طويل في النضال الوطني والاجتماعي ، وحاصل على جائزة لينين للسلام عام ١٩٦٣ . يجمع شعره بين النضالية الانسانية التقدمية ، والتأثر الواضح بالتسرات الاسلامي العربي والفارسي خصوصا الجانب الصوفي ، فضلا عن ثقافته الغربية العميقة الواسعة . ولذلك نجد في شعره الرؤية المعاصرة التي يعبر

عنها تصيرا يجمع بين الرهافة والنعمة والعنف الثوري » .  
البرق يلمع مرة أخرى على طور سيناء  
وشعلة وجه الحقيقة قد تجلت مرة أخرى  
ومرة أخرى

تكون الدعوة للرؤية هي الدعوة للموت .  
هل لعينيك الشجاعة أن تقبل الدعوة أم لا تستطيع ؟  
هل يستطيع هوى القلب أن يحتمل كرامته أم لا يستطيع ؟  
البرق يلمع مرة أخرى على طور سيناء . . .  
أيتها العين المبصرة  
أجلي قلبك مرة أخرى  
فعلى لوح القلب سيتنزل ميثاق جديد  
بينك وبين الحقيقة .

واليوم . . . لكي تغير القرون  
لنفي عن القرون كل اقرار للطاعة  
لا بد أن يكون هناك أمر بالرفض .  
أنصت . . . لعل هذه الكلمة

هي الحرف الاول من الصحف الجديدة  
التي تنزل على قلوب كل المعدمين في الارض  
على الفقراء أجمعين في هذا العالم الابدي  
« نحن المستضعفين مفلولي اللسان . .

نحن العلم والخبير »  
« نحن أفقر الفقراء . . .

نحن البشير والندير »  
فأندر أولي الامر جميعا  
ليتمهدوا سجل آمالهم

لأن حرب اليائسين قد قامت  
ولن يكون هناك ما يكفي لشنقهم من الحبال .  
هنا سيكون كل العقاب وكل الجزاء  
وهنا سيكون العذاب والثواب يوم الحشر .

ترجمة ملك عبد العزيز

انسحبت امامهم عاصفة ترابية مسرعة مع تيار ريح مفاجئة . وكانت الشمس تنسحب فوقهم في السماء منحدره الهويئا عن موقعها . أصبحوا بمحاذاة الاسلاك المثبتة الاوتاد فأجتازوها عبر باب من هذه الاسلاك مثبت بين وتدين فالتقوا بعراء نقسي يمتد امامهما بشمس واهنة . وعبر الغفو الريح الذي حل في رؤوسهم ، سمعوا احدهم :  
- اننا نتقرب من وحدتنا . تلك آثار مواقع جنودنا تظللها الشجيرات والحفر .

اوشكت الشمس ان تنوارى وهي تنحدر مسافة عن موقعها . تاركة وراءها هالة من الالوان الخليطة السائبة . وكان ظل المساء يزداد كثافة حين التحقوا بوحدتهم . حذج سعيد بنظرة عميقة صف الشجيرات القابعة وراء المواقع فالهاها تشاجر في الصمت . وامتثلوا للوقوف امام احد ضباط الوحدة . سألهم وقد استبشر بمقدمهم :

- أين محمود ؟

- استشهد . دفناه لصق الهضبة .

- وحسين ؟

- أصيب . مسجى فوق نقالة . اخترقت ساقه ثلاث رصاصات وشظايا قنبلة محرقة .

- انضموا لوحدتكم . أنتم الآن فوق خط النار .

في الليل حل بينهم السكون المريب ذو الرائحة الساخنة . وسمعوا حسين يهمس بصوت أثقلته البراة :

- اذا مت في فراشي ، فانتهم غير عادلين ، أرغب أن أقبع خلف مدفع .

ظل يتكلم وعيناه تضيعان في وجهه المتضائل :

- أرغب في مئة كميته محمود .

سمعوا الضابط :

- ستقوم اسرائيل بغارة الليلة . كونوا حذرين .

بعد ساعة قرع صوت في الفضاء ، فاهتزت الارض والاشجار ومواقع المدافع المضادة . واختلطت صيحات حذرة :

- طائرات اسرائيلية مقاتلة . كونوا على حذر .

بزغت في السماء عدة شهب نارية اختلطت بأصوات المدافع . بعد ساعة انكشف كل شيء . تمددت هياكل بشرية فقدت بريقها فراحت تنموج فوق التراب . ماتت كل العلامات في الطريق . وهناك فوق ساحة الموقعة اوقف سعيد من حركة قدميه ، حين ارتطمنا بجسد يتحرك حركات واهنة . وانحنى فوقه . لم يستطع ان يتمالك وعيه فاندفع في النسيج . وسمع الصوت الذي بدأ يخبو :

- اذكر يا سعيد . انها بمثل الليلة التي استشهد فيها محمود . انها بلا قمر ولا نجوم . تركت النقالة . زحفت فوق التراب عبر الظلام . رغبت ان أقبع وراء مدفع . لكن نمة شظايا لقنابل العسكرو بادرني قبل أن ألج النفق الصغير . رأيت النجوم تنورد لصق جسدي . وشرايين الارض تضيء . اما انا فكانت مثل الطفل في فمه ندي وفوق وجهه عباءة .

قال سعيد بصوت مخنوق :

- أليس في أسرتك من يعل مهلك ، يا حسين ؟

- كانت زوجتي . ماتت في العام الماضي بعسر الولادة . لي طفلة اودعتها بيت خالتها .

\*\*\*

ومن بين جفنيه راقب بعينيه حركة الجسد وهي تخبو . هب من موقعه وقد حمل الجثة السابحة في الدم وبدت امامه في الظلمة كجذع متفحم . وحين مشى ضاعت عيناه في الفراغ القائم امامه . لم يبق سوى بقعة متألقة من السماء لا زالت تلتهب . لم تكن شرارة ، فقد بزغ نجم .

عبد الصمد حسن

البصرة - العراق